شهادة لغوية

بمناسبة تكريم أحمد بيضون

جمعية السبيل

حول مقالة "توهّمات في المفردة العربية"

كمال بكداش

اسمحوا لي بمناسبة الاحتفال بيوم اللّغة العربية أن أخرج عن سياق حديثي السابق بالتوقّف عند مسألة لغوية أو بالأحرى نفس– لغوية عالجها أحمد بيضون في مقالته "توهّمات في المفردة العربية"، وأعني بها مسألة ما إذا كان للحروف أو الأصوات اللّغوية المفردة بحدّ ذاتها دلالة ما، أو ما عرف لدى ابن جني في "الخصائص" بدلالة الحروف على المعاني، وأعاد إحياءها العلّامة العلايلي في "المقّدمة لدراسة لغة العرب" ونجد ملخّصًا لها في حواره مع أحمد بيضون في مجلة "الفكر العربي".

ويُقصد بهذه المسألة، بتبسيط كلي، أنّ الحرف أو الصّوت اللّغوي المفرد (أو الصُوَيت أو الفونيم) قد يحمل أو يوحي بحدّ ذاته بدلالة معيّنة، كالغين مثلا (غ) يحمل أو يوحي بدلالة الغيبة، ومن هنا، على ما يبدو، تواتره في مفردات تُفيد الغيبة كـ: غاب، وغار، وغاص، و غَطَسَ، إلخ.

أُدرك بالطبع، كما تدركون، أنّ بحث هذه المسألة لا ينطوي على فائدة عملية ظاهرة، ولكن يبدو لي أنّها مسألة مشوّقة ومثيرة للفكر، وقد يقودنا البحث فيها إلى التعرّف إلى خاصية إضافية من خواص الطّبيعة البشرية، إذا ما تحقّقنا من كونية الظّاهرة وشمولها للغات وثقافات متعدّدة.

يسأل أحمد بيضون في مقالته: "أين وجد ابن جني معنى القوّة والشدّة في الكلام (أو الأصل: "ك ل م")؟ ولماذا قالوا كلْم (بتسكين اللام) للجرح وكلِم (بكسرها) للكلام؟ يجيب صاحب الخصائص "ذلك أنّه (أي الكلام) سبب لكلّ شرّ وشدّة في أكثر الأمر".

من المعلوم أنّ أصول المفردات تتكوّن من الأحرف نفسها: "ك ل م"، "ك م ل"، "ل ك م"، "م ك ل"، "م ل ك"، "ل م ك". ويعتقد أهل اللّغة أنّ الأصول المتأتّية عن إعمال قاعدة الاشتقاق تشترك في معنى عام (مع احتفاظ كلّ منها بمعناه المخصوص). غير أنّ أحمد يتوقّف عند هذا الاعتقاد ويلفت إلى أصول تشترك، هي أيضًا، في معنى عامّ، إلّا أنّها من حيث اللّفظ لا يشترك كلّ منها مع شبيهه إلا بحرفين أو بحرف واحد. ثم يطرح سؤالين:

(1) أيصحّ اعتبار الواحد منهما أصلًا للآخر؟
(2) أيصحّ اعتبار الحرف المشترك علّة التّقارب في المعنى؟

سوف نهمل السّؤال الأوّل الّذي يخوض فيه أحمد مطوّلًا للإجابة عنه، ونحصر اهتمامنا بالسّؤال الثاني. والمعلوم أنّ العلّامة العلايلي يُجيب عن هذا السّؤال بالإيجاب، ويجهد بعد طول معايشة للمفردات في المعاجم– في حصر معاني الحروف. فالشين، مثلا، يدلّ في تصوّره على "التفشي بغير نظام ..."، والكاف يدلّ على "الشيء ينتج عن الشيء في احتكاك"، واللّام يدّل على "الانطباع بالشّيء بعد تكلّفه..." إلخ.، إلخ. وهي دلالات يصعب، في الحقيقة، فهمها على المتكلّم العادي.

إختطّ أحمد للتّحقّق من العلاقة المحتملة بين الحرف أو الصّوت اللّغوي والمعنى سبيلًا أكثر واقعية وسوف نوضح لاحقًا أساسه التّجريبي المتين.

عارض بدايةً نظريّة تحكّمية أو، كما كان يُقال، اعتباطية العلامة اللّغوية لدى دو سوسور الّتي شاعت في حينه شيوع البديهيات لدى المشتغلين بعلم اللّغة العام: النّظرية الّتي تنصّ على عدم وجود صلة طبيعية بين الدالّ (أو اللّفظة) والمدلول (أو التصوّر) وأنّ الصّلة بينهما لا باعث لها، واعتبر أنّ إسناد هذه النظرية إلى "الفروق بين اللّغات ووجود اللّغات المختلفة نفسه" حجّة متهافتة تمامًا.

ذلك "... أنّ الدالّ (أي اللفظة) يستعير في ملابسته لمدلوله (أي التصور) كلّ أساليب البيان والبديع..." وهو، أي الدالّ، في استعماله هذه الأساليب، "**يتوهّم استحضار**

المدلول إلى السلسلة الصوتية". بكلامٍ آخر يستدعي تحليل علاقة الدالّ بالمدلول أو الصوت بالمعنى "الالتفات إلى دقائق الصوت البشري وعناصره الحسّية– الحركية"، وهو ما يَقترح تسميته **علم المجاز الصوتي**.

ما هي قواعد هذا المجاز الصوتي؟

ها هنا يبلغ بنا أحمد إلى مبتغانا. يقول: " لمّا كان الصُوَيت صورة حسّية– حركية، فإنّ أيسر التمييزات هو أن نميّز فيه بين ما هو حسّي (أي الصّوت نفسه) وما هو حركي (أي تعيين مَخْرج الصّوت بالصّورة التي تتّخذها حركات أعضاء الجهاز)"، وأنّ كلًّا من هذين الوجهين صالحٌ للتحّول إلى رمز، وهو ما يُعرف بالرّؤية الرمزية للصّوت اللّغوي ومفادها أنّ إنبناء مفردات اللّغة يوظّف "... الطاقة الرمزية للنّظام الصوتي المُعاش في التعبير عن معانٍ توجد في الحس وفي الحركة.."، ثم يكمل في هامش الصفحة (62) ما نريد بلوغه بالضبط: "فما يهمّ هنا ليس ما يحصل فعلًا عند إخراج الصُوَيت، بل ما يكون هناك إحساس بحصوله (بما في ذلك الحركات التي تحدث في الجهاز الصوتي)".

ما أودّ أن أقوله في ختام هذا العرض أنّ الخلاصة التي انتهت إليها مقالة أحمد باتت تدعمها أدلّة تجريبية في غاية القوّة، لا سيّما في أبحاث عالم اللّغة والمحلّل النفسي المجري إيفان فوناجي في مؤلّفه المثير "الصوت الحي، مقدّمة في علم النفس الصوتي" (بالفرنسية) والذي قدّم له عالم اللّغة الشهير رومان ياكوبسون.

لقد تثبّتت هذه الأبحاث تجريبيًّا لدى لغات وثقافات متعدّدة من أنّ الأصوات اللّغوية المُتمايزة تستدعي إحساسات ودلالات مجازية مُتمايزة. فالقسم الأعظم من الأشخاص من جنسيات ولغات مختلفة يؤكّدون في اختبارات دلالة الأصوات اللّغوية أنّ /i/ أصغر وأرقّ وأفرح من /u/؛ وأنّ /s/ أشدّ حدّة من /f/؛ وأنّ /k/ أغلظ من /t/؛ وأنّ /r/ ذكورية أكثر من /l/؛ وأنّ /m/ أكثر حلاوة من /t/ و /k/ ... إلخ.

هذا المجاز الصوتي (أي إضفاء أوصاف مجازية على أصوات اللغة) قد يوحي به أمران (أشار إليهما أحمد): الأثر السمعي للصوت وخصائصه النُطقية. فأحدهما أو كلاهما قد يكون مصدراً لهذا المجاز. غير أنّ تطبيق اختبارات دلالة الأصوات اللّغوية على أطفالٍ صُمٍّ منذ الولادة أو فقدوا السمع في سنٍّ مبكرة يبيّن أنّ الأطفال الصمّ عندما نجعلهم ينطقون الأصوات اللّغوية يؤوّلون مثلهم مثل الأطفال الأسوياء دلالة الأصوات اللّغوية:/k/ أغلظ من /i/؛ /l/ أصغر وأوضح من /u/؛ /u/ أمرّ وأكثر حزنًا من /i/. هذا يؤكّد أنّه يجب البحث عن السّمات الّتي تحدّد المجاز الصوتي على مستوى النّطق وليس في المجال السمعي: وعلى ذلك كيف نفسّر هذه التوافقات (المناسبات) بين الصوت والدلالة؟ كيف يتكوّن هذا المجاز الصوتي؟ ما هو الباعث على هذه المجازات الصوتية؟

إنّ نطق الصوت هو حركة تتلامس فيها أعضاء النطق وتستثير بالتالي إحساسًا حركيًّا، وعلى ذلك يستثير نطق الأصوات اللّغوية المتمايزة إحساسات حركية متمايزة.

تطلق هذه الإحساسات الحركية سلسلة ترابطات (تداعيات) تجتاز الذاكرة الضمنية اللاواعية قبل أن تعبِّر عن نفسها في المجاز الصوتي. بكلامٍ آخر يعبّر الوصف المجازي للأصوات اللغوية (عذبة، سائلة، حادّة، غليظة ...) عن سلسلة من الأفكار والصور، أو تمثّل هذه المستدعَيات الباعث على هذه المجازات الصوتية.

لنحاول تتبّع تداعيات الأفكار والصور التي يطلقها الفعل الصوتي في حالتين فقط على أمل أن نستطيع استخلاص الخلفية اللّاواعية لهذا الفعل.

يربط تراثٌ قديم من البلاغة والشعرية الصوت /ل/ بالعذوبة والرقّة (والرخامة) والمذاق الحلو والسائل المنساب. وتوضح أمثلة عدّة هذه العلاقة التي يقيمها الشعر بين هذا الصوت /ل/ وبين السوائل (Liquide) العذبة، كالحليب (lait) أو العسل (miel). وتؤكّد اختبارات الدلالة هذه العلاقة الذاتية والمنتظمة من خلال وصف معظم

الأشخاص المختبرين الصوت /ل/ بأنّه صوت عذب، حلو بالمقارنة مع /ك/ و /ت/، كما تؤكّد هذه الاختبارات الشيء نفسه بالنّسبة للصوت /م/ مقارنة مع /ك/.

ينزع هذان الصوتان إذًا /ل/ و /م/ نزوعًا تلقائيًّا إلى ما هو ممتع، ملذّ، سارّ، مُستحبّ. ولكن ما هو مصدر هذه المتعة، هذه اللّذّة؟ هناك، على ما يبدو، سمة مشتركة بين هذين الصوتين وهي ارتباطهما بالمص. فالصوت الصامت الأنفي الشفوي المزدوج /م/ هو، بمعنى من المعاني، القوننة اللّغوية لحركة مصّ الشّفاه مصحوبةً باسترخاء الحاجز الّذي يفصل الحنك عن البلعوم. والمعلوم أنّ هذه الحركة تتيح للطفل أثناء الرضاعة أن يتنفّس دون أن يترك الثدي أو المصّاصة. هل في ذلك ما يفسّر في لغات مختلفة وجود الصّوت /م/ في الكلمات الدالة على "الأم"؟ قد يكون، إلا أنّنا نستطيع بشيء من اليقين أن نسوّغ هذه العلاقة المجازية بين الصوت/م/ وبين "العذوبة" بالتوظيف الفمي لهذه الحركة الصوتية الّتي ننطق بها هذا الصّوت. فهذه الحركة تثير إحساسًا ممتعًا شبيهًا بإحساس المصّ، ويُطلق هذا الإحساس تداعيات (لا واعية) تؤول بنا في نهاية المطاف، إلى أن نصف هذا الصّوت وصفًا مجازيًّا بأنّه صوت "عذب"، "رقيق"، "حلو"... إلخ.

يرتبط الصوت "السائل /ل/ أيضًا بفعل المص. يتطلّب نطق هذا الصوت انزلاق اللّسان باتّجاه التّجاويف العليا ملامسًا الحنك القاسي بنعومة. والمعلوم أنّ هذه الحركة أثناء المص حركة متكرّرة. والواقع أنّ حركة نطق /ل/ هي عينها حركة اللّسان خلال اللّعق (لاحظ اللام وكذلك /l/ في allaitement). ومن المرجّح أنّ الحليب (لاحظ اللام في حليب وكذلك /l/ في lait وفي milk) وهو النّمط الأثري الذي تتوارثه الأجيال للسائل بوجه عام يمثّل الصلة السرية التي تربط الصوت /ل/ بالوصف المجازي "سائل" (لاحظ اللام في "سائل" وكذلك /l/ في liquide).

يهيمن هذان الصوتان "العذبان" /ل/ و /م/ في مرحلة المناغاة وذلك، ربما، لما تولده حركات نطق هذين الصوتين من استثارة شبقية للمنطقة الفمية وللإحساسات الممتعة

التي ترتبط بهذه الحركات الصوتية. لكأنّ هذين الصوتين إذ يعيدان في الواقع إنتاج حركة المصّ تصاحبهما استعادة هلاسية مُتخيّلة أو مُتوهمّة لحركة المصّ نفسها، وبهذه الاستعادة يرتبطان بخبرة الإشباع لدى الرضّع.

هذا ما رغبت أن أضيفه إلى "توهّمات" أحمد، ومن الواضح أنّها توهّمات أو، وفق النفسانيّين، هوامات كامنة في ذاكرتنا الضمنية اللاواعية وقد تستدعيها العناصر اللّغوية بما في ذلك الأصوات اللغوية المفردة.